كيف عرّف الشيعة ؟

تبّاً لها وتعساً، تلك العصبيّة الرعناء.. تعساً لها من داءٍ وخيم يجعل الفحول الكبار أقزاماً صغاراً يتعثّرون على حافّات الطريق، تُدمي أقدامُهم، وتتهرّأ ثيابهم، وتتكدّح رُكَبهم وأكفّهم، بل جباهُهم وآنافهم !.

وفي لُجّة هذه الظلمات يرى المسكين أنّ هذه الحال أحبّ إليه من موافقة الخصم على الحقّ المبين.

فكيف سترى الشيخ ابن تيميّة، ذاك الذي ما خالطه مَللٌ أو كلل، وما فتئ يُعنّف على التمسّك بالحديث الضعيف، ويشهّر بمن أورده في شيء من الكلام، كيف ستراه هنا وهو يواجه الشيعة ؟.

إنّك سترى رجلاً آخر، سترى ابن تيميّة وهو يتحصّن بالواهيات، ويحشو أُسّ حصنه بما يشهد عليه بنفسه أنّه لا حظّ له من الصحّة، ولا سبيل إلى دفع شبهة الوضع عنه، ثمّ يقيم عليه كلاماً أشدّ تهافتاً، وينقض بعضه بعضاً، من حيث يدري أو لا يدري، لكنّها وسيلته الوحيدة في مواجهة خصمه.

فاقرأ في أوّل تعريفه للشيعة في ديباجة كتابه، وفي صفحاته الأُولى، هذين القولين:

الأوّل: جَعْلَه المذهب الشيعي من تأسيس عبدالله بن سبأ، وقد ذكر ذلك في غير موضع، فقال في ثاني صفحات ديباجته: إذا كان أصل المذهب مِن إحداث

الزنادقة المنافقين الّذين عاقبهم في حياته عليّ أمير المؤمنين ﷺ، فحرّق منهم طائفةً بالنار، وطلب قتل بعضهم ففرّوا من سيفه البتّار[١].

ولكنّه ذكر فيما بعد ما ينافي هذا الكلام، فقال في أواخر الجزء الثالث: أمّا الفتنة فإنّما ظهرت في الإسلام من الشيعة... فأوّل فتنة كانت في الإسلام قتل عثمان[٢].

وقال: وسعَوا ـ أي الشيعة ـ في قتل عثمان، وهو أوّل الفتن[٣].

فالشيعة إذن موجودون في عهد عثمان، ولهم من العدد والقوّة ما مكّنهم من قتل الخليفة بناءً على هذا الكلام، وهذا لا يتيسّر في أعوام قليلة وخصوصاً في ذلك الزمن، فلا بدّ أن يكون وجودهم أقدم من هذا بكثير.

ومن المعلوم الثابت أنّ دعوة ابن سبأ إنّما ظهرت أيّام أمير المؤمنين عليّ ﷺ كما ذكره أوّلاً، وهذا أوّل التناقض.

وإذا كان ابن سبأ قد دعا دعوته الباطلة أيّام عثمان ﷺ فكان الواجب على الخليفة أن يعجّل إقامة الحدّ عليه كما فعل الإمام عليّ ﷺ.

أمّا كون مقتل عثمان أوّل الفتن فلا يقوله من له علم بتاريخ الإسلام، إلّا هوىً أو عصبيّة، وإنّما هي فتنة سبقتها فتن.

وأمّا أسباب هذه الفتنة فإنّما كانت أحداث أثارت عليه غضب الصحابة

---

(١) منهاج السُنّة ١: ٣.
(٢) منهاج السُنّة ٣: ٢٤١.
(٣) منهاج السُنّة ٣: ٢٤٣.

وأبنائهم، وعلى هذا اتّفقت كلمة أصحاب التاريخ[١]، ومن تلك الأحداث:

١ـ تقديمه بني أُميّة، واستئثار هؤلاء بأموال المسلمين وحقوقهم استئثاراً فاحشاً.

٢ـ خلافه مع عبدالله بن مسعود ﷺ الذي جرّ إلىٰ ضرب عبدالله بن مسعود في مجلسه، وتسبّب ذلك في وفاته، فانحرفت هُذيل عن عثمان لأجله.

٣ـ ما حدث له مع عمّار بن ياسر ﷺ، وضرب عمّار في مجلسه، وانحراف بني مخزوم عن عثمان لأجله.

٤ـ نفيه أبا ذرّ ﷺ إلىٰ الشام، ثمّ ردّه إلىٰ المدينة، ثمّ نفيه إلىٰ الربذة ليعيش وحيداً في أرضٍ لم يسكنها بشر حتّىٰ توفّي.

٥ـ استعمال الوليد بن عقبة بن أبي معيط علىٰ الكوفة، وهو مشهور بالسُكر والفسوق، وقد سجن الصحابي جندب بن كعب ليقتله، ففرّ من السجن إلىٰ بلاد الروم.

٦ـ إيواء الحكم بن أبي العاص وابنه مروان، طريدي رسول الله ﷺ، واتخاذه مروان أميناً له في مجلسه.

٧ـ الكتاب الذي بعثه مروان إلىٰ أهل مصر ليقتلوا محمّد بن أبي بكر ومن معه ممّن بعثهم عثمان إلىٰ هناك، فكتب مروان كتاباً ختمه بخاتم الخليفة وأرسله مع غلام الخليفة، يأمر أهل مصر بقتلهم والتمثيل بهم، فأدركوه واستخرجوا منه الكتاب فلمّا رأوا ما فيه، عادوا من هناك ناقمين علىٰ عثمان حتّىٰ أتمّوا حصاره.

---

(١) الإمامة والسياسة ١: ٣١، تاريخ اليعقوبي ٢: ١٦٥، ١٧١، ١٧٣ ـ ١٧٤، مروج الذهب ٢: ٣٤٧ ـ ٣٥٢، الكامل في التاريخ ٣: ١٤٩ ـ ١٥٣.

ولا يستطيع أحد أن ينكر ما أثبته التاريخ من تحريض أُمّ المؤمنين عائشة على عثمان، وقولها: «اقتلوا نعثلاً فقد كفر»[١]، وتحريض طلحة والزبير وبثّهما الكتب إلىٰ الأمصار يحرّضان علىٰ عثمان، وقد أخرج لها أهل البصرة هذه الكتب يوم الجمل، وقالوا لطلحة: أتعرف هذا الكتاب؟ قال: نعم.

قالوا: فما رَدّك علىٰ ما كنت عليه، وكنت بالأمس تكتب إلينا تؤلّبنا علىٰ قتل عثمان، وأنت اليوم تدعونا إلىٰ الطلب بدمه؟![٢].

فأمّا عثمان فقد رأى أنّ طلحة هو رأس هذه الفتنة، فدعا عليه وهو محصور في بيته، فقال: «هذا ما أمر به طلحة، اللّهمّ اكفني طلحة فإنّه حمل عليّ هؤلاء وألّبهم عليّ، والله إنّي لأرجو أن يكون منها صفراً، وأن يُسفك دمه»[٣].

تلك هي فتنة مقتل عثمان، وتلك أسبابها.

أمّا ذاك اليهودي ابن اليهودي عبدالله بن سبأ فهو أحقر بكثير من أن يستدرج كبار الصحابة إلىٰ ما هو أدنى من ذلك بكثير.

ولعمر الحقّ لقد أفنىٰ ابن تيميّة كلّ ما يذكره من فضائل الصحابة حين يجعل هذا اليهودي وأتباعه سبباً في هذا النزاع وقادةً له.

فهل يكون ابن سبأ هو الذي حرّض عائشة وطلحة والزبير وأبا ذرّ وعمّار وعبدالله بن مسعود ومئات الصحابة الّذين تقموا علىٰ عثمان تلك الأحداث؟!.

---

(١) تاريخ الطبري ٥: ١٧٢، الكامل في التاريخ ٣: ٢٠٦، الإمامة والسياسة ١: ٥٢، الفتوح لابن أعثم ١: ٤٣٤.

(٢) تاريخ الطبري ٥: ١٧٩، الكامل في التاريخ ٣: ٢١٦، الإمامة والسياسة: ٦٨.

(٣) الكامل في التاريخ ٣: ١٧٤.

إنّها من المهازل التي لا تنطلي على أحد.